كانت المرايا المتقابلة تعكس الوجوه البادية فيها الى ما لا نهاية.ورائحة البن تتصاعد من اطراف المقهى الاربعة ، والرواد على قلتهم منتشون بعبير الخمرة السوداء ، عندما مر احد صابغي الاحذية . كان صبيا لم يتجاوز الاثنتي عشرة سنة ، يحمل صندوقه الخشبي كأنه حمل ثقيل قد ناء به الظهر الرقيق !

كان الى جانبي صديق يشرب قهوته ببطء ، وينظر بين لحظة واخرى الى حذائه المغبر ، ويبعث باحدى عينيه الى الشارع ، تبحث عن ماسح احذية ، فلما مر الصبي صاح الصديق بأعلى صوته :

ـ يا ولد .. تعال يا ولد ...

فتسمر الصبي ، وابتسم ، ثم استدار ، ودخل المقهى الصغير ، والقى بحمله بين اقدامنا ، واقتعد كرسيا صغيرا كان يحمله بيده . ومد الصديق احدى قدميه ، وبدأ الصبي عمله في معالجة الحذاء المغبر .

كان الصبي رقيقا نحيلا ، ذا بشرة ناعمة . وكان في وجهه عينان سوداوان جميلتان لم ار اجمل منهما في حياتي. وكان رغم اشتغاله في مهنة مسح الاحذية ، نظيفا تلوح عليه آثار نعمة غابرة . وكان لوداعته ولصفاء وجهه ولطافته ، اشبه بقطعة من الخبز قد نقعت في الحليب الساخن .

حاول الصبي ان يمسك بيده الفرشاة ، فسقطت من يده ، ولكنه تناولها بسرعة ، وبدأ يمسح بها الغبار . كان يبدو عليه التكلف في عمله ، وبدا انه يعمل في مهنة ليست له ، او انه لم يتقنها بعد . وكانت يده المرتجفة وعيناه اللتان كانتا تشعان بالسنا الباهر ، وانكسار الامل على نظراته الحائرة ، يفسران محاولته المخفقة التي كان يشبعها الجهد في تنظيف الحذاء ، ويطرحان دون اثارة اي سؤال ، حياة قلقة ، وعذابا ليس لهوله حدود ، كان الصبي يخضع له نفسه ، لتذوق مرارة الفشل في كل سحبه فرشاة على جلد مغبر ، ليلمعه فيبصر فيه مستقبل ايامه الغامضة !

كان يرتدي سترة زرقاء باهتة قد لوحتها الشمس ، ولكنها كانت نظيفة ، وفي قدميه كان ينتعل صندلا صيفيا لايزال فيه بقية من حياة حتى اواسط الخريف ، وكانت ازرار السترة اللامعة ، تخفي بعض الشيء نسيج الفناء الذي حاكته الايام على صفحة السترة التي توشك ان تبلى ولم تمسك على حياتها سوى يدين مولعتين بالنظافة ، قد حضنتا هذا الصبي الذي لايزال منهمكا في تلميع فردة الحذاء .

خطر لي ان احدثه ، بينما كان الصديق يشرب قهوته بلذة وهدوء . قلت له :

ـ ماسمك ؟

فاجابني وقد توقف عن العمل :

ـ حسين .

قلت وقد تفاءلت بالاسم :

ـ ومن اين انت ياحسين ؟

فاجابني وقد اسند ذراعه على فخذه ، وفي كفه فرشاة تنتظر :

ـ اننا من درعا .. .ولكننا مقيمون هنا في دمشق !

وتابعت اسئلتي بينما كان يتابع هو توقفه عن العمل خلال الرد عليها :

ـ هل لك اخوة او اخوات . ام او اب ؟

ابتسم حسين ابتسامة باهتة ، ثم ترك ابتسامته المتعبة تجيب على سؤالي :

ـ لي اخوة واخوات ، صغار . وام فقط .

وسألته مجددا ، ولكن بحنان اكثر عندما علمت انه كبير العائلة :

ـ والمدرسة .. ياحسين ! هل دخلت مدرسة ذات يوم ؟

فاجابني وقد اطرق برأسه يبحث عن شيء ضائع :

ـ بقيت فيها ثلاث سنوات . ثم هجرتها . ان عملي اليوم اكثر اهمية من الدراسة !

فختمت اسئلتي المحرجة :

ـ وكم تربح في اليوم ياحسين ؟

فكان رده بسيطا عفويا :

ـ ليرة او اقل .. احيانا اكثر !

انزل صديقي قدمه عن الصندوق ، ورفع القدم الاخرى ، وبدا الفرق واضحا بين فردتي حذائه . وتابع الصبي مسح الحذاء بنفس اليد المرتجفة ، وضعف الخبرة .. فكأن اليد التي تمسك بالقلم تعجز عن حمل فرشاة في حياتها . وكانت المرايا لاتزال تعكس مئات الصور ،ورائحة الخمرة السوداء تتصاعد مثل عبير وردة برية في صحراء مقفرة والاضواء تهتز تحت الهواء الذي تبعثه المروحة ، والزبائن بين داخل وخارج ،يغفون على جو المقهى ، ما تتركه انامل العازف على الاوتار المختلفة ، من شتيت الانغام التي يوحدها عازف الكمان الماهر . وكانت هذه المقطوعة التي تعزف دون ان يسمعها احد ، ينقصها لحن « حسين » ذلك الصبي الذي لاينسى .

شئت ان احدث صديقي فسألته :

ـ الا ترى الى المرآة كيف تعكس الصور عنا ؟ من نحن ، بين عديد الصور المتشابهة ؟

ولكن الصديق لم يجبني . لقد انصرف الى حسين يسأله :

ـ لماذا لم تتقن الفردة الاولى جيدا ؟

فرد حسين وهو يبتسم ابتسامة بيضاء :

ـ ثق ياسيدي انني وضعت فيها كل جهدي .

انهمك حسين من جديد في حمل الفرشاة ، والمسح بها ، ولكن ذراعه الضيقة كانت اعجز من ان تحمل فرشاة وتضغط بها على صفحة حذاء مغبر . وفي خلال العمل وانهماكنا مجددا في الحديث عن المرايا اخرج حسين علبة دهان مفرغة ، نظيفة ، ممتلئة بالماء حتى فتحتها ، ووضعها على جانب من الصندوق . كان في العلبة الزجاجية سمكة صغيرة . وكانت السمكة رفيعة طويلة ولكنها صغيرة . وكان اطار الزجاجة ضيقا فلا يتسع للسمكة اذا ارادت ان تتمدد على طولها فيه . كانت السمكة متعبة مرهقة ، مضطربة تصعد الى الذروة ، وتعود من جديد في لمحة لتستقر في القعر وكأنها تضغط على نفسها لتقصر قليلا .. ولكن ذلك كان مستحيلا . وكانت تتنفس بسرعة ، وبعنف ، وبتعب . خيل الينا انا وصديقي ان السمكة ستموت لامحالة اذا ظلت في هذا المكان الضيق. فسألت حسين :

ـ لماذا لاتضعها في طاس . او كوب . انها ستموت ياحسين ؟

فرد ضاحكا ، وهو يتأملها بشغف ووله مفرطين في السعادة :

ـ ستقاوم ياسيدي . انني سآخذها الى المنزل توا ..

انصرفنا الى تأمل السمكة المحصورة في نطاقها الضيق . ولكن حسين كان ينظر اليها نظرة خاصة . كان يشعر نحوها بعواطف عديدة ، ولكنه لا يجيد التعبير عنها . لقد كان مشغولا بعمله الذي لم يتقنه بعد . انه لايعرف كيف تحمل الفرشاة ، ولا كيف يوضع الدهان على قطعة الاسفنج. انه يدخل المهنة الجديدة دون الالمام بأبسط اسسها ومباديها ، وكان جهله لاصول الصنعة يعوضه من ارتجاف يديه ، وحمرة خديه وخفوت الضوء في العينين السوداوين الجميلتين ، وارتجاف الشفتين القرمزيتين كجناحي حمامة مطعونة .

كانت السمكة توشك ان تموت . وكان حسين يسرع في مسح ماتبقى من الحذاء . كان يتعذب بعمله وحمله الصندوق وارتدائه تلك السترة الزرقاء البالية . لقد كان عليه ان يجرب عمل صانعي الاحذية المفرطين في الحذق . وفيما كانت السمكة تختنق بالماء ـ رغم انها لاتعيش الا به ـ وجدران الزجاج المحيطة بها تضيق عليها شيئا فشيئا ـ كما تضيق جبال الثلج في المحيطات على السفن التائهة ـ وتنفسها يضطرب ويشتد كلما بدت لها النهاية اقرب من عنق الزجاجة المفرطة في القصر ، كان حسين لايزال يحمل الفرشاة بيد مرتجفة ويحاول اتقان تلميع الحذاء ،ولكنه كان يخفق في كل محاولاته . وكان يبدو عليه الاضطراب وعدم الاستقرار وكان الشعور بالراحة يعاوده قليلا ولكن سرعان مايند عنه ليحل محله شعور بالقلق والمسؤولية التي القيت على كاهله ! وكان يعتذر بعينيه من الزبون ، ليسامحه اذا بدا انه لم يستطع تلميع الحذاء بالصورة المعهودة في مثل الحالات المشابهة . وكان لايستعمل لسانه رغم سلامته ، خشية الا يتفوه بكلمات ليس لها علاقة بموضوع الاعتذار ، اصلا !!

نزلت قدم الزميل وللم حسين اغراضه ، وحمل سمكته الصغيرة في زجاجته الضيقة وتوقف لحظة امامي . كان يمزقه الالم ، فقد بدا وجهه الرقيق عابسا لمصير السمكة ، ولكنه اراد لو امد احدى قدمي ، فلم افعل . كنت راغبا من كل قلبي ان ينجو امل حسين في ان تعيش السمكة وتواصل الحياة .

غاب حسين في الزحام ، ولكنه ترك في نفسينا صورة لاتمحى . ان السمكة الصغيرة لاتزال تتعذب . لاتزال تصعد وتهبط دون ان تستطيع المكوث ولو لحظة على طولها فيحملها الماء اذا ارخت بكل ثقلها فيه . وحسين ، ذلك الصبي الرقيق الذي حمل صندوقا ينوء به الظهر ، واخذ يجلس امام الزبائن وفيهم الطيب وفيهم الشرير لايزال يمسح الاحذية بيد مرتجفة ، وعينين متعبتين ، وقلب لم يتسع لاحلام الطفولة فاتسع لهموم الصغار الذين يفدون ارباب اسر قبل الاوان !!

كان عبير الخمرة السوداء قد خدر اكثر الحواس ، وبعث النشوة في بعضها ، والمروحة تبعث الانسام الرطبة في المسام جميعا ، والمرايا المتقابلة لاتزال رغم صمتها ، تعبر عن مكنونها بابداعها من الصورة عشرات الصور المتشابهة ، وتوزع خواطر النفس على الماضي والحاضر والمستقبل وتقف اكثر فاكثر عند كافة الاحواض الضيقة المترعة بالسمك ، والمنتشرة في اكثر بقاع العالم . وخلال هذا الفيض من الصمت المثقل بالتأمل سألني صديقي وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ هل تعتقد ان السمكة ستموت ؟

فقلت له وعينا حسين السوداوان تثيران لي طريق الجواب ، ووجهه الرقيق وبشرته الناعمة تمهدانه :

ـ اذا كنت تقصد السمكة الصغيرة ، فكل ظني انها لن تموت !

ولا ادري الى الان رغم مضي مدة طويلة على التقائنا بحسين ، اذا كانت السمكة قد ماتت حقا ! ذلك ان اتساع الحوض على السمكة ، يشير باتساع الاحواض جميعا !!

حمص — علي بدور

كتابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب